

خواط عه أناس أفزا ذعا شوابعض الأحِيان لِغيرِهمُ كثرممًا غامثوا لأنفسهم

الجنع للفياتع





مواطر عن أثنس أطاط عاشوا يعض الأميان تبيرهم أكثر الاعاشوا الأقسهم

.



الت برستال زائم سنت ستية ١٣١٠ - ١٩٤١ عفزالكي أطية - الطرف

# المنابع المناب

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض الأحبان نغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء الخاميس

نابد جُعِفَ الخائل جَعِفَ الخِلِبْ لِي

هد پــــة

مؤسسة آل البيت المِيَّجِ لِإشياء التراث إلى مكتبة الجوافين العامة



ISBN: 964 - 503 - 012 - 9

ردمك الدوره: ٣ ـ ٥٠٥ ـ ٥٠٣

ISBN: 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب: هكذا عرفتهم /ج ٥

المؤلف: جعفر الخليلي

الناشر: انتشارات المكتبة الحيدرية

عدد الصفحات والقطع : ٢٦٤ صفحة وزيري

عدد المطبوع: ١٠٠٠ جلد من الجزء الخامس

سنة الطبع : ١٣٨٤\_١٤٢٦ هـ

المطبعة: شريعت

سعر الدورة الواحدة (١/٧):

# كيف عرفت عبد القادر عياش ١٩١١ ـ ١٩٧٤

# **- 1 -**

في الحمسينات ، ولا أذكر أية سنة منها بالضبط ، دعيت إلى وليمة عشاء في بيت الصديقين كوركيس عواد ، وميخائيل عواد ، وهما يقيمان في بيتين – متلاصقين ، متصلين – من بيوت الكرادة الشرقية من بغداد ، وقيل في ان المناسبة في هذه الدعوة هي تكريم شخص باحث يعنى بالفلكلور وتاريخ ما أهمله التاريخ مما يحص الفرات الأعلى و ( دير الزور ) وأطرافها ، ولأول مرة أسمع باسم عبد القادر عياش وأراه بعيني ، وكان يومذاك دون الأربعين ، قامة معتدلة ، ويشرة وجه نقية ، ودمائة خلق جذابة ، في صوت هادىء ، حبيب إلى النفس ، وكان الأخوان ( العوادان ) قد دعوا جمعاً من الأدباء وحملة الأقلام ، والصحافيين فامتلاً بهم صالون الدار طهوه إلا وكان شيء منه فوق المائدة ، وكانت المائدة سخية بتلك الأصناف التي يأكلها أمثالنا من غير الموصليين لأول مرة ، حتى الحبز كان منه ما لم نسمع به من قبل كالخبز الأصفر ، والحبز الأسود ، والحبز المحلى ، والحبز الأسود ، والحبز المحلى ، والحبز الذي يدعونه ( بالكبابة ) وأصناف من المعجنات الي

أثارت الدهشة في نفسي بتفنن الموصليين في ألوان الأطعمة ، و ( الكبب ) الموصلية بصورة خاصة ، لأن الأخوين كوركيس وميخائيل موصليان أصيلان ، عريقان .

وكان لا بد لي أن أعرف شيئاً عن هذا الضيف المكرم ، فعلمت انه سوري ، ومن أهل ( دير الزور ) ، وأنه محام ، ومن مواليد ١٩١١ ، وقد تخرج في كلية الحقوق بدمشق سنة ١٩٣٥ ، وانه صحافي يصدر بدير الزور صحيفة باسم ( صوت الفرات ) منذ سنة ١٩٤٥ ، وعجبت كيف لم أسمع باسمه من قبل ، وأنا الآخر صحافي مثله يصل الي عدد غير قليل من الصحف على سبيل المبادلة ، فلم تقع عيني قبل هذا على هذه الصحيفة ، ولا على اسم هذا الرجمل ؟ وزال عجبي بعد ذلك بسنوات حين عرفت عبد القادر عياش معرفة جيدة ، وعلمت انه من الرهط القليل الذين يعملون بدون ضجة ، ودون اعلان ودعاوة لأنفسهم ، وان ما ورثه من أبيه – وكان أبوه تاجراً – وما يكسبه من معاماته كان ينفقه على صحيفته التي يعملون بدو الزور ، وما يجاورها من الدساكر ، والقرى ، وحياة السكان جعل منها صحيفة خاصة تعنى بالفولكلور ، واستقصاء العادات والتقاليد ، وتاريخ دير الزور ، وما يجاورها من الدساكر ، والقرى ، وحياة السكان فيها ، وقد صار له شأن مذكور في مثل هذا الاختصاص حتى أصبح في فيها ، وقد صار له شأن مذكور في مثل هذا الاختصاص حتى أصبح في وتاريخه القديم ، والحديث ، وسكانه ، وتقاليدهم ، وعاداتهم .

ومرت سنوات على هذه المعرفة ولم يجر بيني وبينه أي اتصال ، ولا أي مكاتبة ، حتى تلقيت منه ذات يوم مؤلفاً جديداً مطبوعاً بمطابع دمشق يتناول فيه جانباً من جوانب هذا التاريخ ، ووجهاً من وجوه الفولكلور ، والذي لا أذكر الآن أي كتاب هو من كتبه التي تمثله في موضوعاته والتي تلقيته منه أول مرة وقرأته بشوق ولذة ، ومن هذا المؤلف علمت بأن عبد القادر عياش يقوم بوضع سلسلة من البحوث التي تفتقر الثقافة العامة اليها افتقاراً شديداً ، وانه بذلك يسد فراغاً لم يسبقه إلى سدة مؤلف من قبل ،

فكتبت له برأيي واعجابي بما قرأت وأنا طالما زعمت بأني لا أخلط بين الفن والعاطفة، ولربما جاءت الاشارة إلى مثل هذا عني في غير مكان واحد، وما لبثت أن تناولت من البريد عدداً من هذه المؤلفات التي انفر د بموضوعاتها وبحوثها عياش، فرحت أقرأها واحداً واحداً، وأدهشني بما يبذل من مجهود في جمع هذه المعلومات وتفلية المصادر والبحث عنها في مظانها وغير مظانها ونشدان الطرائف منها كأن يخص أحد مؤلفاته ( بالعصا ) فيصف العصا ، ويأتي على وصف أنواعها ، ويذكر أهميتها، وقيمتها عند العرب السابقين ، وكيفية استعمالها في حوزة من يحملها ان كان من الزعماء ، أو كان من العمال ، أو الرعاة ، وأصول هذا الحمل ، وما قبل في العصا من أشهر الأمثال ، وأسهر الشعر في العربية ، ثم المألوف من أنواع العصوات في ( دير الزور ) وأطرافها .

ويخص رسالة أخرى ( بالبئر ) فيذكر وصف البئر ، وأهميتها عند العرب وأشهر هذه الآبار المعروفة في الصحراء ، وكيفية الاستقاء منها ، وما يخص منطقة دير الزور ، وعرب باديتها ، وما جاء في أشهر الأمثال والشعر عن البئر عند العرب .

وهكذا يعمل مع (الذئب) و (الأفاعي والحيات) و (القمر) و (الصيد) و (السعالى) و (الحرافات) و (القصص) وكل موضوع من هذه الموضوعات يخصه برسالة واحدة ومؤلف واحد يتناول تاريخه تم يعرض للتعرف به في منطقته من دير الزور ونواحيها القريبة والبعيدة ، وقد يتصدى للأمثلة والقصص المقارنة عند البدو والحضر وما يخص (البيت) وأصنافه وأنواعه وما تضم البيوت وتحتوي عليسه في الماضي والحاضر من المدن العربية ، والقرى والبيوت الصحراوية ، وحياة (الريف) في الفرات وعشرات من الكتب التي يؤلف كل واحد منها محاضرة وافية ضافية تجمع الموضوع من جميع أطرافه فلا تترك واردة ولا شاردة الا وأشارت اليها اشارة فولكلورية كافية، بالإضافة إلى الكتب التاريخية البحتة



من اليمين الشيخ جلال الحنفي وهو حاسر الرأس وعبد القادر عياش وعبد الرحمن ابو قوس

كتاريخ (الرحبة) — وهي غير الرحبة التي تقع بالقرب من النجف الأشرف في الطريق البري للحج — وهي رحبة مالك بن طوق أميرها في القرن الثالث الهجري ، والتي هي اليوم بلدة (المياذين) الواقعة جنوب شرقي دير الزور وعلى بعد ٤٠ كيلو متراً بين دير الزور و (البوكمال) والتي يمر بها القادم من بغداد إلى دير الزور عن طريق (الرمادي) و (هيت) و (حديثه) و (القائم) و (أبي كمال).

وكتاريخ (قرقيسيا) و (الحابور) و (دير الزور) الذي كان آخر كتبه التي أخرجها قبل وفاته بقليل، والذي تضمن ذكر دير الزور عند الرحالة من الأجانب وعلماء الآثار الذين مروا (بالدير) في أثناء التنقيب خصيصاً، أو في عرض طريقهم إلى العراق، والمعروف في الصحف أن عدد مؤلفات عبد القادر عياش قد بلغت ١١٦ مؤلفاً، ولكن حسان الكاتب قد أحصى هذه المؤلفات فوجدها ١٣٤ مؤلفاً انحصرت كلها بالفولكلور، والتاريخ، باستثناء القليل الذي خرج عن هذا الحط كمؤلفه عن ( ألمانيا الديموقراطية ) وهو شبيه بعرض لهذه الزيارة ، كان نتيجة لدعوة تلقاها لزيارة ألمانيا .

وهناك معجم كبير لم يخرج بعد إلى حيز الطبع ، وهو مجموعة تراجم لرجال الثقافة والأدب السوريين ابتداء من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٧٤ وهي سنة وفاته وكان يشير إلى هذا المعجم كثيراً في رسائله التي كان يبعث بها الي ، وقد علمت أنه أتم ترجمة ،٣٠٠ شخص ولم يزل هذا المعجم مخطوطاً عسى أن يلتفت اليه من يهمته أمر الثقافة من المسؤولين ، ويلتفت إلى مؤلفاته السالفة ويطبعها من جديد طبعاً متقناً على غرار (الروائع) لفؤاد افرام البستاني ، ونشرها بين المدارس الثانوية وتجهيز المكتبات العربية والجامعات بها ، وطبع ما لم يطبع منها ، وشراء متحفه النفيس وضمه إلى المتاحف السورية الكبرى ، ويعنى بأولاده عناية خاصة براً بما قدم وفعل هذا الرجل في ميدان الحدمة النافعة .

وأنا أحتفظ بمعظم كتب (عياش) المطبوعة ان لم يكن كلها ، وكان (عياش) يعمل كل هذا دون مؤازرة من الحكومة أو المعاهد العلمية ، أو المجمع العلمي ، فكل ما يجمعه من عمله من نقود كان ينفقه في هذا السبيل ، وكان إلى جانب ذلك لا يتوانى عن تكريم أهل العلم والفن والأدب ، وكان يهدي كل كتاب يصدر منه باسم واحد من أهل الفضل ويضع كلمة الاهداء في صدر الكتاب اشارة إلى هذا التكريم ، وقد فعل مثل هذا مع الكثير كان منهم الدكتور أحمد سوسة فأهدى له كتاب ( المعلومات الزراعية والادارية في سنجق دير الزور ) الذي ألفه المهندس ( نايف ) وحققه وطبعه عبد القادر عياش ، لعلاقة الدكتور سوسة بهندسة الري .

وتفضل وأهدى باسمي كتابه الخاص بتاريخ ( قرقيسيا ) المعروفة اليوم باسم ( البصيرة ) ، وكتب لي يوم قدم مؤلفه هذا إلى المطبعة يقول : 
لا ودفعت إلى مطبعة ابن زيدون بدمشق مخطوطتي ( قرقيسيا ) وهي

﴿ البِصِيرَةُ ﴾ قاعدة وادي الخابور ، وهي تحمل اهداءها اليك ، تحية أصدق الود ، وأوفــر التقدير ، والشوق ، وأطيب الأمنيات ، وقد وعدتني المطبعة أن تنتهي من صفها في نهاية نيسان الحالي ، أرجو أن تتكرم بقبول الاهداء ، وهي دراسة تاريخية وأدبية ، وجغرافية ، واقتصادية ، وادارية ، راثدة ( لقرقيسيا ) بلدة البصيرة حالياً ، والاهداء تجسيد ، وتخليد للصداقة التي أعتز بها وأغتبط ، وهي إذا كانت دون قيمتك الكبيرة عندي فهي كل جهدي ، وجهدي هذا جهد المقل ۽ وقد صدر الكتاب فعلاً وطبع في صدره الاهداء في صفحة مستقلة .

وقد أحسن الشاعر الكبير محمد عبد الغني حسن شاعر الأهرام في وصف جهود عبد القادر عياش ، واصداره هذه السلسلة من البحوث عن وادي الفرات في قصيدته الرائعة الموجهة إلى ( عياش ) أذ يقول :

صوتك العذب في المسامع رناً يصف الماضي الذي ضاع منسا يرفع الستر عن تراث مجيد يصل الحاضر السي بمساض ويرد" الحياة في كل شيء

ويرينا وجهاً من الصبح أسني كان مثل النهار ضوء ً وحسنـــا ويعيد الحياة في كل مغنى

لمحات منها فقد خاب ظنسسا أنت دونتها اختلاجة معميي أثرأ دارسأ وشيدت ركنـــــــا نتملى منه وتمتسم عينسسا صورأ حيتة وعلمسأ وفنسسا

من يظن الحياة بالأمس ضاعت أنت سجلتها انطلاقة لفظ .أنت صورتها فأحييت منها فكأنّا نرى الرّاث لدينــــا أنت أضفيت باقتدار عليسسه

فكأنسا نزور متحف فسسن جمع الطيبات لونآ فلونسسسا

• • •

ان وادي الفرات فعديه الينا باحثاً بالفنون صار معنى شغلت ملامح الشعب حتى وجد القصد عندها واطمأنا كل يوم نرى كتاباً جديداً من أفانينه ونسمع لحنسا

وأحسن كذلك الأب يوسف سعيد الذي كتب إلى مجلة الأديب من السويد يصف عبد القادر عياش وصفاً كاملاً على الرغم من إيجازه فقال :

« تلقيت منه – أي من عياش – رسالة يسألني فيها عن الحضارة السريانية ، في دير ( مارزكى ) المجاور لمدينة دير الزور ، والحاثم على الفرات ، وأجبته عليها ، وفي حينها طلب مني مؤلفي عن المطران بولس بهنام صاحب مجلة ( المشرق ) الموصلية ، فأهديت الكتاب اليه مع رسالة ضافية ، ثم يقول الأب يوسف :

وذات يوم من صيف ١٩٧٠ وفيها أزور للمرة الأولى (دير الزور) كان الأستاذ عبد القادر عياش يسأل عني ، ويريد اللقاء ، وفعلا "اتصل به صديقي الديري ، فما كان منه إلا أن جاء سريعاً ، وقال لي : برنامجنا جلسة على ضفة الفرات ، وجولة في المدينة ، وزيارة بيني ، والاطلاع على مكتبتي ، ومتحفي ، وزيارة الشاعر محمد الفراتي ، ثم قال الأب يوسف :

وان العشية في دير الزور ، والمساء الحالم يمسد الماء الهادىء في فراته جلسة حلم نادرة ، والماء الفراتي حلو المذاق ، والشمس حزينة في وداعها ، والصمت شفاف إلا من لهجة (الديريين) وأنها قريبة من لهجة الموصل ، وقد تحدثنا — أنا وعياش — طويلاً ، وقمنا بالجولة في المدينة ، وكانت اللحظات باهتة جداً تجاه المدينة الحلوة ، وكنت أتحسس طفولتي بالذات في الموصل ، وكان عبد القادر عباش يشرح لي تاريخها .

وإذا كانت حضارة القرن العشرين في زحفها الدائم على سورية فغداً سيقول تاريخ الفولكلور بأن عبد القادر عياش من أساطين من أرخ للوادي ولم يترك واردة ، ولا شاردة إلا وسجلها ، وهو محلص إلى عملة البراعة ، يتفقدهم ، ويزورهم ، ويسأل عنهم ، ويناقشهم ، ولا شك ان جل مؤلفاته الفولكلورية رائعة ، وما كتبه خالد ، وما لم يكتبه هيهات أن يبقيه الزمن لتغير الأحوال ، وما تفرضه موضة القرن العشرين فرضاً .

ويبقى عياش ناقلاً قصص الوادي حيث الخرافة بمرعة والأسطورة بهجة رجالها ، واللعب الشعبي يمارس ، الا انه بدأ يتقرض ، والأسطورة بدأت تتلاشى . والخرافة تبقى بقايا في أذهان العجائز .

و وإذا تطرق العياش في بحث فلكلوري حاول ايراد ما جاء عنه بالفصحى . وقد يرجع إلى الكتب المقدسة كبحثه عن (العصا) ويحصي كم مرة وردت في القرآن ، والتوراة ، والانجيل ، ولكن (العياش) سريع النشر ، وأسلوبه أسلوب مؤرخ محدود لا اشراق في تعبيره (١) لكننا نقى أبداً في دهشة تجاه هذا الحب اللامتناهي تجاه واديه ، وشعبه ، ويضيف الأب يوسف قائلاً :

« وعندما زرت بيته ، كانت مكتبته رائعة ، ولكنني وجدت كل كتاب يقتنيه أو يهدى اليه حديثاً يحل تجليده ، ويفك عنه خيوطه ، ويعيده مصفوفاً فوق بعضه ولكن بدون تجليد ، ولما سألته ماذا تعني بذلك أجابني رحمه الله : انها عادتي (٢) .

<sup>(</sup>١) وانا اخالف الأب في رأيه هذا – المؤلف.

<sup>(</sup>٢) والذي أعلمه أنا مما سمعته منه انه كان يخلع غلاف الكتاب ويقوم بتجليده وفق شكل معين ليناسق تجليده مع الكتب الأخرى ، وكان يجمع هذه الكتب غير المجلدة حتى إذا حصلت له الفرصة قام بتجليدها كلها بيده و بالشكل الذي يريده المؤلف.

و أما القسم الثاني من دارته ، فهو متحف للأسلحة القديمة التي مارسها شعب الوادي ، وفيها أنواع السيوف ، والحناجر ، والسكاكين ، والرماح ، والبنادق ، وعلب المسدسات ، وغيرها من أنواع الأسلحة ، وإذا كان للسلاح القديم سوق رائجة فان متحف الأسلحة التي جمعها (العياش) متحف له قيمة عظيمة .

وحدثني العياش عن أسرته وتاريخها في الدير ، ويوم جاء الرصافي
 الشاعر إلى دير الزور ، وكيفية نزوله ضيفاً على العياش بضعة أيام ...

¶ وبينما كنت أعتقد \_ يقول الأب يوسف \_ ان الأيام ستمتد بحياته فوجثت بنعيه على صفحات مجلتنا المحبوبة ( الأديب ) ، وعندما طالعت الحبر كانت أكثر من شهقة حزن تحول ما بين قلبي ، وتعتصر ما بين أهدابي√، ففي ذمة الله يا صديقي الراحل ¶ انتهى كلام الأب في الأديب .

### \_ ٣ \_

والعياش في كل ذلك متواضع ، لا غرور ، ولا ادعاء ، ولا تعال ، ولا يفاخر بأنه قد عمل شيئاً ، أو انه يحاول أن يعمل شيئاً على الأقل ، ولقد كتب لي غير مرة بأنه مفتقر كل الافتقار إلى مساعدتي !! حين رآني أعلق بعض التعليق على بعض كتبه فأروي له ما كان يستحسن أن يضيف شيئاً ، فظن في الخير حتى كتب لي يقول :

الله و ال

« ان بلدتي دير الزور فقيرة لم تبلغ بعد مصاف البلدة التي تنجب الأدباء ، والكتاب ، والعلماء ، وكم تمنيت لو أنها كانت بلد علم ، وأدب ، وفضل وفضلاء ، وكنت أتمنى أن أكون بنفس البلد الذي توجد أنت به لأعرض عليك ما أكتبه ، ولأتقبل ، وآخذ بجميع ما تدلي به وتقبرحه ، وتضيفه ، ولولا أن تشق علي نفقات الطريق لحضرت إلى بغداد عقب انتهائي من كل عمل أدبي لي لعرضه عليك ، فلا يأخذ طريقه إلى المطبعة الا اذا مر من تحت يدك ، وأجزته !! ».

انه غاية في التواضع ، فالرجل كما أعلم باحث مدقق متفوق ، وان الذي كتبه عن وادي الفرات ودير الزور ليس باستطاعة أحد أن يكتب مثله وذلك لعدم احاطته بالذي أحاط به ( العياش ) ، وهذا مثل آخر لهذه النفس الكبيرة المتواضعة ، البعيدة عن الغرور ، والتي لا تطمع بشيء ولا تبغي من وراء عملها شكراً من أحد ، ولا جزاء ، وقد كتب لي مرة عن عمله الأدبي والتاريخي ، والفولكلوري فقال :

الي أطبع جميع بحوثي على نفقي دون أن تعود على منها نفقاتها ، ذلك لأن أمثال هذه البحوث لا تلقى رواجاً ، ولهذا فلا أعرضها في المكتبات ، وانما أطبعها وأهديها في الغالب للأصدقاء ، والمعارف ، والمجامع العلمية ، والمكتبات العامة ، فأجد في ذلك لذة كبيرة ، وهذه اللذة هي التي تحفزني للعمل ، فلقد طبعت أنا على اللذة بالعطاء ، وقد ورثت ذلك عن أمي وأبي فحرصت عليه ، ولو أردت مخالفته لما طاوعتني سجيتي ، ولماذا أخالفه ما دام فيه اللذة في المساهمة بالانسانية فكراً وشعوراً ، ثم هو وسيلة طيبة لاكتساب الأصدقاء والطيبين من أمثالك ، والذين تفوق قيمهم فيم اللثاني ، وأغلى المجوهرات والأحجار الكريمة ، والعقارات وما إلى ذلك من ثروات وكنوز ».

# \_ 1 \_

 وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه ، وازداد اعجابي به ، وانتفاعي بكتبه زيادة كبيرة لا من حيث مجهوده العلمي والأدبي الذي يقدمه للمجتمع العربي ، وقرائه ، دون أن يكون هناك من يساعده ، أو يفكر في مساعدته ، من وزارة التربية ، أو وزارة الثقافة والاعلام ، والمعاهد ، والمجامع العلمية في سوريا أو في الأقطار العربية الأخرى فحسب ، وانما الذي زاد اعجابي به يما لمسته منه ، من الانسانية المتدفقة ، والعواطف الجياشة ، والمحبة الطاهرة للناس ، والوداعة التي تشد اليه كل الذين يتسنى لهم أن يعرفوه عن قرب وعن بعد ، وكثر التراسل بيننا ، وفي كل رسالة كنت أكتشف فيه عنصرًا جديداً من عناصر الخير ، ونعمة المواهب التي حباه الله بها ، وخلق منه انسانًا مفعمًا بالشعور، والاحساس، والعواطف الرقيقة التي تتحلي بها الانسانية ، ثم أتيسح لي أن أراه غير مرة ولاسيما المرة الأخسيرة التي دعى فيها من قبل الدكتور حسين أمين الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد للمشاركة في مؤتمر المؤرخين العرب الذي عقد ببغداد سنة ١٩٧٣ والذي حضره عدد من رجال الاستشراق ، والعلماء العرب ، فحظيت به في بيتي وأولمت لتكريمه وليمة جمعته بطائفة من الأدباء والكتاب والمؤلفين الباحثين ، وهي وليمة إذا عزّ عليها أن تكون شبيهة ولو بعض الشيء بوليمة ( العوَّادين ) السخية الكريمة ، فقد كانت شبيهة بها من حيث المبالغة في تكريم الرجل ، ثم حضر بيتي غير مرة في هذه الزيارة ، وتناولنا العشاء معاً ، وقضى بعض الوقت ينقل من مكتبتي بعض ما كان يبحث عنه لبحوثه ، وقد قرأت ( ليعرب السيد ) في جريدة ( الثورة ) السورية اشارة إلى هذا المؤتمر ( مؤتمر المؤرخين ) الذي حضره ( العياش ) ببغداد و ذلك في العدد المؤرخ ١٩٧٣/٤/١٢ يقول فيها :

القي أهمية هذا المؤتمر من كونه أول مؤتمر دولي للتاريخ والآثار بجري فيه الحوار والنقاش بين المؤرخين ، وعلماء الآثار في أنحاء مختلفة من

العالم، وقد حضر هـذا المؤتمر - من سوريا - بدعوة شخصية الأستاذ عبد القادر عياش مؤسس متحف التقاليد الشعبية بمدينة (دير الزور) ومؤرخ منطقة وادي الفرات الذي ألّف ونشر ١١٦ موضوعاً بين بحث ، وكراسة ، وكتاب ، عن تراث وادي الفرات ، والحياة الاجتماعية ، والاقتصادية فيه منذ فترات طويلة ، وقد تعدت شهرة المتحف حدود القطر العربي السوري ، وكذلك مؤلفات الأستاذ ( عياش ) والأستاذ عياش من موافيد سنة ١٩١١ كرس منذ حوالي ربع قرن وقته ، وجهده ، وماله ، لدراسة تاريخ منطقة وادي الفرات ، وحضارته ، وسكانه ، واقتصاده ، تاريخ منطقة وادي الفرات ، وحضارته ، وسكانه ، واقتصاده ، له جهده ، و فولكلوره ، وتشهد على ذلك مؤلفاته ، ومتحفه الذي كرس من أية جهة رسمية وغير رسمية ، آه .

هذا بعض ما نشرته الجريدة السورية الرسمية التي تمثل الحكومة السورية ، وكان المفروض أن تتبنى الحكومة السورية مشروع (عياش) وتتولى هي طبع كتبه ، وتساعد على انتشارها ، ولكن المسؤولين كما يظهر لا يقرأون حتى صحفهم ، ولا يعملون بشيء مما يكتب فيها عن غيرهم .

وكان (عياش) كثيراً ما يحثني على زيارة دير الزور ، ويستنجزني وعدي لأنه طالما كتب لي داعياً وأنا أعده بالاجابة ، وهو لم يفعل مثل هذا معي وحدي وانما يدعو الكثير ممن يعرف إلى دير الزور ، بل ان الكثير من المستشرقين والسياح الأجانب والذين كانوا قد قرأوا كتبه أو سمعوا بمتحفه الفولكلوري يقصدون دير الزور حين يزورون سوريا فلا يتركهسم (عياش) دون ضيافة غداء أو عشاء أو قضاء أيام في بيته ، وقد قضى بعض من أعرف ومنهم الشيخ جلال الحنفي أياماً طويلة ضيوفاً عليه ، متمتعين بدمائة خلقه ، وكرمه ، واستعراض التحف التي يضمها بيته من كل ما لا يجري على بال من الأسلحة بمختلف أنواعها من السيوف والخناجر ، بوالمسلمات ، والبنادق ، وأدوات الطبخ ، وحواثج البيت ، من وسائل

الزينة عند النساء ، وأدوات الحجامة ، والحلاقة ، وأواني الشاي منذ أول دخول الشاي إلى وادي الفرات ودير الزور حتى اليوم ، وأباريق القهوة (الدلال) وفناجينها بجميع أصنافها ، وما يخص التبغ والتنباك ، والتدخين من الأكياس والعلب، والمشارب، والأدوات ، والزناد وعلب الكبريت ، وتطور اشعال النار ووسائطه ، والمسابح ، والساعات ، والمصابيح ، والأختام ، وغير ذلك الكثير الكثير الذي أشار اليه زواره الذين زاروا بيته أو نزلوا ضيوفاً عليه في مقالاتهم ، أو رسائلهم .

ويقول عبد القادر عياش نفسه عن هذا المتحف بأن بداية تأسيسه كانت عفوية ومن قبيل المصادفة ، ففي عام ١٩٣٨ كان يقوم ومعه زوجته ( أم فاروق ) — ولا أدري هل ان لها ابناً موجوداً باسم فاروق ؟ وكل ما أعلمه ان له بناتاً وان زوجته تكنتى بأم فاروق ، وقد توفيت قبل وفاته بنحو سبع عشرة سنة .

يقول عياش: انه كان يقوم ذات يوم بزيارة (حلب) وقد دخل هو وزوجته متنزهاً من متنزهات البلد (حلب) واقتعدا ناحية منه وما كادا يجلسان حتى جاءهما النادل ، وأخبرهما بأن هذا المتنزه خاص بالمسيحيين والراجع أن ينتقلا منه إلى متنزه آخر .

ويقول عياش : لقد سألت النادل ، ترى من أين عرفت اننا مسلمان ؟ فقال ـــ من هذا المنديل الحريري الأسود الذي تلف به السيدة شعرها .

ويقول عياش للنادل: — فما رأيك لو رفعت زوجتي هنا المنديل من على رأسها ووضعته في حقيبتها فهل يصح لنا الجلوس هنا كما لو كنا مسيحيين ، لأني واجد في هذا المكان شيئاً غير قليل من راحة النفس من حيث الموقع ، وغرس الورود ، والأشجار ، وتنسيقها .

قأجاب النادل : ــ ليس هناك أي بأس ، وأي مانع لأن سرّ التميز بين المسلمين وغيرهم كامن في هذا المنديل من حيث اللباس ، وان هذا المنديل

هو الصارخ بأنكما مندسان في زمرة لستما من أهلها، ولا هي مـــن أهلكمـــا.

وسرعان ما رفعت المنديل الأسود من على رأس زوجتي ودسسته في حقيبتها وتوجهت اليها قائلاً: — ان هذا المنديل يجب أن ندخله في متحف التقاليد بدير الزور ، فقالت — لا أعهد ان في دير الزور متحفاً كهذا الذي تقول أو غيره ، فقلت ولكننا نحن الذين ستؤسس هذا المتحف ، وسنجمع فيه كل الأدوات ، والآلات والرموز الدالة على التقاليد المتبعة في (دير الزور) ووادي الفرات ، ولما كان الكثير من هذه العادات والتقاليد — يقول عياش — مشتركة مع البدو ، ومع أغلب مدن الفرات من شماله الغربي إلى جنوبه فسيصبح هذا المتحف متحفاً عاماً أو شبه عام ليس لمؤرخي الفولكلور غيى عنه ، فماذا تقولين ؟

قالت ـــ هو الذي تقوله أنت .

وما كدنا نعود إلى الديرَ حتى بدأنا ببيتنا أولاً تجمع منه بعض ما نجد من مخلفات أهلنا الذين ماتوا ، ثم قويت الرغبة في نفس زوجتي فراحت تشتري ما تعثر عليه من بعض البيوت وتضمه إلى هذه المخلفات .

وفي أواسط الخمسينات أحسسنا بوجوب تنظيم هذا المتحف ، وتصنيف محتوياته ، والبحث عما ينقصه لكي يكون متحفاً كاملاً تتمثل فيه كل التقاليد والعادات وأساليب المعيشة ، ومقتضيات الحياة الضرورية وغير الضرورية عند السكان.

وحين طلبت احالي على صندوق تقاعد المحامين ، وتركت المحاماة الهائياً ، وجدت نفسي متفرغاً للاهتمام بهذا المتحف بالاضافة إلى اهتمامي بالبحث والتأليف ، لاسيما وان زوجي كانت قد توفيت ولم يكن عندي من يعيني غير ابني اللتين كانتا صغيرتين يوم ماتت أمهما فكبرتا وصار بامكانهما القيام ببعض ما هو في طاقتهما بالاضافة إلى واجباتهما الأخرى ،

وقد سميت هذا المتحف باسم ( متحف التقاليد الشعبية بدير الزور ) وأنا مدين في الكثير من بحوثي له ، فان الكثير من أدواته ، وأسباب هو الذي أوحى الي وجوب التغلغل في هذه البحوث . وتتبع جذورها ، كما يعود الفضل الأول إلى زوجتي لأنها هي التي كانت السبب الأول في بعث هذه الفكرة في نفسي ، وهي التي عنيت بهذا المتحف أول ما عنيت .

قلت ان بحوثه هي التي لفتت أنظار من لم يلتفت إلى أهمية وادي الفرات ودير الزور في التاريخ ، والتاريخ الفولكلوري بصورة خاصة وقد كان متحفه الحافز المهم لشهرة دير الزور بين رجال التاريخ والمعنين بدراسة العادات والتقاليد، فكثر زوار دير الزور من الأجانب وعلماء العرب وكثر الذين أشاروا إلى دير الزور عن طريق بحوث (عياش) ومتحفه ، ولولا وجود محمد الفراتي الشاعر المعروف لنفينا حتى وجود من يفهم العربية بالدير فضلاً عن فهمه الأدب والتاريخ، ومزاياهما وليس أدل على ذلك من أن يموت (عياش) وليس هناك من صوت في الدير أو خبر ، فما كان هناك رجلاً قضى نحو نصف قرن وهو يلهج بذكر هذا البلد ويحيي كأن هناك رجلاً قضى نحو نصف قرن وهو يلهج بذكر هذا البلد ويحيي آثاره، فيقصر صحيفته التي يصدرها على خدمة الفرات الأعلى وتمجيد غابره وحاضره ، حتى إذا غفل أحد عن أهمية هذه المنطقة في التاريخ العربي نبهه وحاضره ، حتى إذا غفل أحد عن أهمية هذه المنطقة في التاريخ العربي نبهه المدركين لزيارة دير الزور وتحبيبه لهم قضاء وقت طيب في هذا البلد ، والتمتع بمناظر الفرات عند الصباح وعند المساء .

ويبدو – مما ذكر لي الشيخ جلال الحنفي – أن عبد القادر عياش كان يلتزم بعض الشيء مع ضيوفه لوناً من ألوان ( الاتكيت ) فيلتزم أن لا يجلس هو وضيوفه إلى المائدة إلا وهم في إناقة تامة – شأن الانكليز – من حيث اللباس ، وكيفية الجلوس ، وتناول السكين باليد اليمني ، والشوكة باليد اليسرى ، وهذا ما دعا الشيخ جلال الحنفي الذي لم يعتد هذه القيود ولم يلتزم بالاتكيت ، ولم يعرف شيئاً اسمه التقاليد ، في قيامه ، وقعوده

وأكله ، وشربه ، ولباسه ، وعمامته التي لا تزيد طولاً على ربع متر فهي تكاد لا تدور على رأسه ، والتي اتخذ منها الحنفي مجرد رمز للعمامة لا غير ، لذلك كانت عمّته خير شاهد على هذا المزاج الحاص في نشدان الحرية ، ولقد سألته ذات يوم – وكنت أحسب ان طول عمامته لا يقل عن نصف متر – عن طول عمامته ؟ فقال اني أشتري متراً واحداً من القماش الأبيض فأقسمه إلى أربع عمامات ، وهذا يكفي للدلالة ، على تعيين صنفي وكوني شيخاً لمن يريد أن يصنفني .

أقول ، وهذا المزاج هو الذي دعا إنى وقوع شبه معركة كلامية ، ونقاش حاد بين ( عياش ) الذي يحافظ على الاتكيت والنظام والتقاليد وبين الشيخ جلال الحنفي الذي لا يلتزم بشيء وذلك كلما جلسا على مائدة الطعام . فالحنفي يقول ان الالتزام بالتقاليد قد يكون واجب المراعاة في محيط يلتزم بها ، وبين ناس لا ينبغي أن يشذ عنهم واحد ، أما ان التزم بها في بيبي وبيت عبد القادر عياش ، وبيوت أصدقائي فهو مما يثير الضحك ، وكثر الجدل بين الحنفي وعياش، وراح الحنفي يروي لعياش من الأحاديث، والأمثلة ، والشعر شيئاً عن قيمة الحرية ، وحقها في الوجود ، وراح العياش يروي للحنفي أهمية النظام والالتزام بالترتيب في البيت كما في الخارج ليكون رب البيت وربة البيت قدوة لأولادهما ، اذ على النظام هذا يتوقف الشيء الكثير من شؤون الحياة ويأتي عياش بالآراء الكثيرة الواردة في علم النفس . وعلم الاجتماع ــ وبالشعر والأمثال أيضاً ، وقد اشتد نزاعهما أخيراً ، وتكرر كل يوم من أيام ضيافة الشيخ الحنفي في بيت عبد القادر عياش . والشيخ الحنفي ضيق الصدر بعض الأحيان ، وهذا ما دعاه أن يتجاهل اهتمام عياش به ورعايته له ، والحدب على راحته ، والمبالغة في اكرامه ويفرّ من دير الزور ، ولا يمكث فيها أكثر من أسبوع في حين كان عياش يتمنى بأن يطيل الحنفي البقاء عنده شهراً وأكبثر

والحق ان الحنفي الذي يتفلت من القيود ، ويخرج عليها لا يمتنع أن يتقيد بها إذا اضطر إلى ذلك ، فقد كان في الصين مثلاً يتناول الرز بالعيدان ويأكل بها كما يأكل الصينيون ، وقد كان يمشي حاسر الرأس – وهو ما لم يألفه – حين وجد ان لبس العمامة نابياً وغير مألوف في پكين وشنغهاي .

وقد كتب لي عياش غير مرة كما مرت الاشارة من قبل يدعوني لزيارة الدير ، ويشوقني كل الشوق لمثل هذه الزيارة بوصفه الممناظر الحلابة في الفرات الأعلى ، وكثيراً ما طلب مني أن أصحب معي الدكتور أحمد سوسه ، ولم يكن خبر النظام والقيود التي يلتزم بها عياش — على ما يقول الحنفي — هو الحائل دون زيارتي المدير الأن في نفسي الاستعداد الكامل لمراعاة تقاليد المحيط أينما وجدت ، ولكن الظروف لم تمكني من ذلك ، ومع كوني قادراً على الانسجام مع من تجمعني واياهم المجالس ، والسفر ، والعمل ، فأنا قريب في الرأي من الشيخ الحنفي ، وأرى كم يكون صحيحاً لو يترك كل انسان على سجيته في أحوال معينة طبعاً ، فهو المسؤول وحده عن تصرفاته على شرط أن الا تعود هذه التصرفات بالسوء والأذى أو الاشمئز از على الآخرين ، وهناك أبيات نقلتها من الفارسية إلى العربية تعني ما أقول وهي :

أنا يا زاهد، الذي اخترت حان وأنا نفسي الذي أرفع الكأس بكفي هـــل تحد اك سائسل بسؤال فانا حينما ألوذ بحـــان

الشرب مأوى فأنت ماذا يخصك ؟ فأنت مسلماذا يخصك ؟ أنت لما قبعت في محسرابك ؟ مستكناً فأنت ماذا يخصك ؟

وفي يوم لم تكن الحلاقة بالكهرباء معروفة بعد في الشرق العربي جاء صديق لي من أميركا ومعه ماكنة حلاقة بالكهرباء، وقد مر بالقاهرة في طريقه إلى العراق، ويومذاك كانت دائرة الكمارك المصرية شديدة الحرص على تفلية الأمتعة وتفتيشها خشية تسرب المخدرات، فكانت تفتش حتى

جلود الكتب وثنايا الألبسة ودروزها ، لذلك ما كاد المفتش يرى ماكنة الحلاقة حتى رفعها بيده وبدأ يعالج وضعها وتركيبها ليهتدي إلى طريقة تفكيكها وهو يسأل صاحبها عن ماهية هذه الماكنة ، فرد عليه هذا الصديق قائلاً الهاماكنة حلاقة بالكهرباء، وبشيء من التعجب سأل المفتش باللغة المصرية الدارجة قائلاً:

(ودا حضرتك ما تحلق إلا بالكهربا؟)

وكان هذا الصديق قد برم وسأم طول الوقوف والمفتش يبحث بين ألبسته وأمتعته وبحاول تفكيك ماكنة الحلاقة فرد عليه وهو يغالب الغضب والضجر قائلا :

(أريد أن أحلق بالنعال فأنت ماذا يعنيك وماذا يخصك ؟)

أجل لقد كتب لي عياش مرة يقول :

و انه ليسعدني أن أدعوك إلى زبارة دير الزور لتشاهدها، وهي حرية بالمشاهدة ، فايست هي عراقية ولا سورية ، فان لها طابعها ، وشخصيتها وسماتها الحاصة ، وستعود إذا ما زرتها بانطباعات غنية عديدة لا أحسب أنها ستنمحي من لوحة ذاكرتك ، وستكون دير الزور مصدر كتابات وفيرة لك ، اذ ستأخذ بيدك لزيارة معالم تاريخية كثيرة أهمها سهل (صفين) الذي كلما مر عليه أهل الدير وقفوا وقرأوا هناك ( الفاتحة ) على أرواح الشهداء ويستمر قائلا :

و ولقد ألقيت مرة محاضرة عن (صفين ) في المركز الثقافي بدير الزور عند افتتاحه ، وطبعتها ، فهل تريد إغراء أكثر ؟ فتعال ، فان أسباب الاغراء وفيرة يضيق الورق بايرادها وشرحها ، – ثم يستمر في الكتابة ويقسول :

و انني أسكن في بيت على خطوات من النهر ، وفيه خمس غرف

ليس فيه غير ابنتي ( جلاء ) و ( وفاء ) وسيكونان في خدمتك ، واحدة على عينك ، والأخرى على شمالك ، والمكتبة تحت متناول يدك ، ومتحف التقاليد الشعبية تطالعه ويطالعك ، والفرات الذي يربط دير الزور بالنجف يسقيك من مائه العذب ، ويحبب اليك الاقامة هنا .

ان خريف دير الزور لطيف جداً وانها لأمنية عزيزة أن تقضي أياماً في دير الزور على ضفاف الفرات التي تتميز على غيرها من ضفافه في الأماكن الأخرى ، وليتك تحضر معك الدكتور (سوسة) للاستجمام من عناء العمل الأدبي ... النع »

لقد أسفت من قبل وقلت ان مثل هذا الرجل الذي يرفع اسم (الدير) ويبشر بمعالمه ، وأهميته التاريخية ، وينزل الضيوف في بيت به بموت ولا نسمع لموته صرخة حزن ، ولا أنة ثكلي من أهل الدير والحكومة ، وقد كان من حقه أن يقام له تمثال تقدير على الفرات ، وجزى الله مجلة (الأديب) اللبنانية ، وجزى الله مجلة (الضاد) الحلبية اللتين نعتاه ونوهتا بفضله على العلم ، والأدب ، والثقافة ، وعلى أهل الدير بصورة خاصة ، وحين تقوم الآن وزارة الثقافة السورية باحياء ذكرى عبد القادر عياش فانها ستفعل ذلك لينتفع بها الأحياء ويترسموا خطواته ، أما هو فقد انقطعت علاقته بالدنيا ولن يفيده شيء بعد مماته .

\_ 4 \_

وعياش على جانب كبير جداً من دمائة الحلق ، ورقة الطبع ، والحنان الذي تطفح به عيناه ، ويفيض به قلبه ، وانه لا يبعد أن يكون نسيج وحده من حيث رقة العاطفة ، ورهافة الحس والشعور بما تختلج به نفوس الحزانى والضائعين في دروب الحياة ، حتى ليبكي مع الباكين ، ويحزن لحزنهم ، ويتألم لألمهم وليس من الشرط أن يعرفهم معرفة الصديق ويكفي أن تجمعه

واياهم الانسانية وهذا ما لمسته منه في كثير من المناسبات : خفّة في الطبع ، وحناناً يتدفق من أعماق قلبه فيغمر به الآخرين ، ووفاء منقطع النظير لمن يحب ويألف ، انها سجايا ليس بامكان كل أحد أن يتصف بها .

وحين توفيت زوجتي رثيتها بأبيات متواضعة لم يرضني نسجها ولا أدري من من الأصدقاء قد بعث بها إلى مجلة ( الأديب ) فنشرت مع تعليق كما لم أدر كيف انتقلت إلى صحف أخرى ، فكانت هذه الأبيات عند البعض الذين لم يكونوا قد علموا بفجيعتي هي التي حملت البهم الحبر ، فتلقيت على أثرها تعازي الأصدقاء في الحارج ، ومواساتهم ، وكان من بين أولئك عبد القادر عياش الذي علم بالحبر من هذه الأبيات ، فكتب لي يواسيني ، ويحملني على التأسي به حين فجع بزوجته ، ومن هذه الرسالة نلم بشيء من رقة طبع هذا الرجل ووفائه لزوجته ، واحتفاظه بأطيب ذكرياتها ، وميله الدائم للبكاء عليها بالرغم من مرور عشر سنين على وفاتها ، فقد كانت تشغل ذهنه وقلبه وكل حواسه ، وسنلمس وفاءه أكثر حين نعلم انه أضرب عن الزواج بأخرى بعد مماتها مع انه كان لم يزل في منتصف عمره ولم يدخل بعد مرحلة الكهولة .

وأكبر ظني أن الذي هاجه من مرثيتي لزوجتي بعض الأبيات كان من بينها قولي :

اك أنسى ؟ وملء جوانحي ذكراك ؟

أنســـاك لا والله لا أنســــــاك وقـــولى :

أرجائـــه إلا عويل الباكي يأتي ولا ضيف يؤم حمـــاك

البيت بعدك معول لا صوت في والباب بعـــدك مقفـــل لا زائر

وقــولي :

حبق ، وما غرست هناك يداك ..

حتى الورود ذوت فلا ورد ولا الخ ... لعل هذا وأمثاله من قصيدتي هو الذي هاجه ، أو وجد فيه تنفساً ، وعلى أن هذه الأبيات ليست بالشيء المهم الذي يتجاوز الحسرة المعتادة المألوفة فقد تكون عند أشخاص عرفوا برقة الاحساس مثل (عياش) كافية لتهيج فيهم الذكريات ، وتعيد إلى أذهانهم تلك الصور الحبيبة من زوجاتهم — وإن بعدت عهودهم بها — كما لو كانوا قد فجعوا بهن اليوم ، فكت لى يقول :

و منذ أن قرأت نبأ السيدة المثالية زوجك ، أحسست بأني أعيش مصابك الكبير ، وأقدره في كل أبعاده ، فلم تطاوعني مشاعري بأن أكتب اليك تعزية مزجاة ، وقد استصغرتها كثيراً ، فما هي قبمتها ؟ وما أنا بمحسن صياغتها تجاه خطب كهذا ، فلذت بالصمت ، اذ وجدتني عاجزاً كل العجز — وما زلت كذلك — عن خط تعزية اليك .

ووددت لو أني كنت إلى جانبك، أقص عليك من أنباء (أم فاروق) — وأم فاروق هي زوجته التي فجع بها كما مرت الاشارة — فأروح عنك بعض الألم، والضيق، فلقد حملت نفس المصيبة فلنحملها معاً.

و ان صورة (أم فاروق) وهي في حجم كبير ما زالت في موضعها وفوق سريرها في غرفة نومنا منذ أن ركزت قبل وفاتها بسنين ، وقد مضت على الوفاة الآن عشر سنوات ، ولم أزل أنظر إلى الصورة في غرفة منامي كل يوم عندما أفتح عيني ، وأنهض من فراشي ، أو آوي اليه ، فهي شعري ، وهي لغة تعبيري ، وان بناتنا يعتنين بهذه الصورة ، ويزلن عنها الغبار في كل وقت ، ولكن غبار الزمن ما زال ، ولن يزال لاصقاً بذرات النخاع ، من هذا الدماغ ، ومن الصعب أن يزول .

و وما ملكت من العبارة عن غيابها ــ على كثرة ما قيل في مثل هذه الحال من الشعر والأمثال ــ الا ترديد مثل شعبي شائع عندنا ، وهــــم يرددونه في مثل هذه الأحوال ، وقد برز لي من بين آلاف الأمثال التي

عنيت بجمعها خلال سنوات ، فلا أدري لم اخترته دون تلك الأمثال البليغة وهو ( غابت الحاتون واظلم بيتها ) وجاء معه مثل آخر هو ( ما للمصائب إلا أهلها ) .

و واستطعت أن أنزع من عجزي هذا تعبيراً آخر ، وأفرغ هذا العجز في وضع كتابين الأول هو (البيت) – عند العرب حضراً وبدواً – لأهديه في سطرين صغيرين إلى من كانت ربة بيت مثالية جديرة ، والثاني كتاب (المصيبة) ولست أذكر ان كنت بعثت بهما اليك ؟ (١) فان لم أكن فعلت فأرجو اعلامي لأوافيك بهما مع كتابين جديدين صدرا لي مؤخراً وهما (حكايات من وادي الفرات) تطفلت بها على باعك الطويل البارع في القصص ، وكتاب عن (البوكمال) تاريخها ، وعشائرها ، واقتصادها ، وسكانها ، ووضعها الاداري ، والبوكمال هذه تجاور الحدود العراقية من العرب ، وفي الكتاب صفحات عن كل من مدينة (ماري) ومدينة العرب ، وفي الكتاب صفحات عن كل من مدينة (ماري) ومدينة (المدريايارو) رئيس البعثة الفرنسية الأثرية في تل الحريري (ماري) ،

واستدرت قرائتها مدامعي ، ليس لأنها ذكرتني ( بأم فاروق ) ذلك لأني واستدرت قرائتها مدامعي ، ليس لأنها ذكرتني ( بأم فاروق ) ذلك لأني ما نسيت أم فاروق ساعة ليذكرني أحد بها ، وانما لأن القصيدة أبرزت لي مقدار لوعتك ، وحزنك ، وهمك ، فبكيت على المرحومة زوجك، وعلى أم فاروق ، وقد أتاحت لي قصيدتك ظرف بكاء كنت أشتهيه ، وأرغب فيه رغبة شديدة ، لعلي أنفس به لواعج تضطرم في نفسي اضطراماً ، ولقد أرهقني سكوتي عن الكتابة اليك في محنتك التي تتجاوز حدود

 <sup>(</sup>۱) كان قد بعثهما وقرأتهما بعجل اذ لم يترك شيئاً يتعلق بالبيت وما يحتوي عليه عند
 الحضر والبدو من العرب، والمصيبة وكيف يتلقاها العرب وأهل الدير – المؤلف.

الكلمات ، كيف لا وأنت تعلم بعجزي عن التعبير ، وخبجلي من العي والتفاهة !!

القد كنت في قصيدتك البليغة الصادقة لساني المعبر عى مثل هذا الموقف فأين لساني من لسانك ؟ وأنت قد تمرست في مختلف الأساليب وملكت أعنة النثر والشعر ، فصرفت الكتابة في كل مجال وغرض .

« أعاود قراءة قصيدتك لا تمثل صورة السيدة الغالية زوجك ، ولتذكرني بخصال قد ينسيني اياها كبر السن ، ولذا أعاود قراءة ما قاله شعراء العرب القدامي والمحدثون في رثاء زوجاتهم .

و لقد انتصبت إلى جانب صورة أم فاروق صورة أختها زوجك الكريم وما زلت أذكر روابتك لنا ونحن في بيتك العامر نطل على المكتبة ، وقد قلت انك اضطررت إلى بيع مكتبتك مرة ، وكنت تفضل أن تبيع طنافس البيت والسجاد ، ولكن زوجتك قد وقفت حائلاً دون ذلك لئلا تقع عيون الناس على البيت ويروه عارياً من الفرش ، وهو علامة العوز والفقر والحاجة ، وأقنعتك أخيراً على بيع المكتبة فبعتها ، وما هذه التي نراها إلا المكتبة الثانية التي تقوم على أساس المكتبة المبيعة .

ولقد أكبرت السيدة من يومها ، وقدرت لها حسن ادراكها ،
 وغيرتها على جاهك ، وحبها العظيم لك .

ولقد وددت كثيراً لو أنني أفضت في رسالتي هذه التي أكتبها اليك، والتي أخطها بصعوبة، ولكني أحس اني في جيشان نفسي شديد، وبين دمع ينبثق، وبين مغالبة له أكفكفه بجهد، وهيهات أن يقف، وأقف دون هياج النفس وجيشانها وهي مائجة بين هذه الأمواج المتلاطمة من الذكريات، وقد احتضنتني الثلاث والستون من السنين.

و ولئن كنت أقرأ كثيراً ، وأكتب قليلاً ، فما ذلك إلا التوقف

عند المحطات بمقدار ما يتوقف القطار في طريقه متزوداً ، وان الذكريات هي الزاد عندي ، والمتنفس ، والنجوى .

و يخسر التاجر فيراجع دفاتره القديمة ، أما نحن الذين خسرنا زوجاتنا العزيزات ، الغاليات ، واللواتي يفقن كل كنوز الأرض ثروة ، فان ذكرياتهن هي التي نعاودها وتعاودنا ، لا نمل معاودتها وتقليبها ، فقد كانت ذكريات حقائق وعوالم حية ، ولم تكن أخيلة وأماني وهمية ، فكيف نملتها وهي الزاد ، والمتعة الروحية البريئة ، وهي هي رمز الوفاء والاعتراف بالجميل ، والنبل الذي نحرص عليه ، وما فتثنا نحرص عليه ، وندعو اليه ، وهو أعز ما في رسالة الكاتب والأديب .

« يكلمني الأقارب والأصدقاء بالزواج فأرد عليهم بأنهم يزعجونني ويؤذونني أشد ازعاج ، وأبلغ أذى ، حتى كفّوا عني .

و ان بناتي يملأن بيتي وقد كسبتهن ، وكسبني ، وفي ذلك راحة كبيرة لنفسي . فكأن أم فاروق ما زالت تشجعني ، وعندما كنت وأم فاروق نمر بعسر كانت تقول ليتك قد عملت في التجارة مثل أهلك فملكت ثروة ، فأقول لها ، ولكنك أنت ثروتي التي لا تعدلها ثروة في الدنيا وأنا غني بك ، وأنت غنية في وبأولادنا الذين لا تعدلهم كل ثروات الأرض فتضحك راضية ، وأقول لها : ان ضحكك ثروة أيضاً ، آه .

هذه الرسالة تصور للقارى، ما كان عليه عبد القادر عياش من خلق عظيم ، ووفاء كبير ، وعاطفة سامية ، وانسانية تكاد تكون فذة ان لم تكن فذة إلى جانب مواهبه الأدبية ، وجلده الذي كان ينفرد به في البحث والتتبع ، ولقد تجلى وفاء عياش ، وحنانه ، ورقة شعوره في الرعاية التي خص بها زوجته في أيامها الأخيرة بأبهى صوره ، وأزهاها وهي خير دليل على ما تكن هذه النفس من المعاني الانسانية ، والمحبة ، ورقة العاطفة ، فلقد ماتت زوجته في المستشفى الايطالي بدمشق بعد مرض استمر ثمانية عشر فلقد ماتت زوجته في المستشفى الايطالي بدمشق بعد مرض استمر ثمانية عشر

يوماً ، وكان في كل هذه الأيام وساعاتها لم يبرح مكانه من سريرها ، وفي الليل كان يقتعد مقعداً تجيء به له الراهبات يقوم مقام نصف سرير على ما وصفه لي هو ، وكانت من بناته اثنتان لم تزالًا صغيرتين ، وقد تركهما في ( دير الزور ) ولم يكن عنده خادم ولا خادمة ، ولا من يقوم بمساعدته في البيت ، أما ابنته الكبرى فكانت قد تزوجت بمحام من مدينة ( الرقة ) وهي تقيم هناك، وتوفيت زوجته وهو إلى جوارها وبمشهد منه وحيداً واستأجر طيارة خاصة نقل بها نعش زوجته إلى مسقط رأسها ليدفنها هناك ، والله وحده يعلم كيف دبتر نفقات المستشفى والمعالجة وأجور الطيارة وهو مملق كما أعلم ، وقد كان في أزمة نفسية حادة لأن المطلوب منه بعد هذا أن يكون قدوة للتصبر ليخفف بذلك شيئاً من حزن ابنتيه الصغيرتين ، وليقلل شيئاً من جزع ابنته المتزوجة التي كانت قد تركت زوجها وأولادها في ( الرقة ) وجاءت لتحضر أمها في ساعة الدفن ، وتعين أختيها الصغيرتين ، ولكن الخطب كان جسيماً عند ( عياش ) فكيف يستطيع أن يتناسى هذه الزوجة المثالية وهو بمثل ما جبل عليه من المروءة ، والوفاء ورقة العاطفة ؟ ثم كيف يستطيع أن يحل محل" الأم في رعاية ابنتيه الصغيرتين والعناية بهما ؟ وهكذا حار في أمره ، لاسيما وقد كان لا يزال يزاول المحاماة وان محاماته هذه لتفرض عليه التغيّب عن البيت نهاراً كاملاً بين المحاكم وقد تضطره للخروج من دير الزور وحضور الكشوف القضائية في النواحي الناثية ، فكان مضطراً لاصطحاب ابنتيه معه أنتى ذهب ، وتأمين مكان لهما يجلسان فيه بالقرب من محل وقوفه أو مراجعاته القانونية!! وكانت له ابنة أخرى كبيرة وفي آخر مراحل الدراسة الثانوية فاضطرت حين رأت محنة أبيها وحيرته وعذابه إلى ترك المدرسة لتقوم هي بشؤون البيت ومساعدة أبيها في العناية بأختيها الصغيرتين والاهتمام بشؤون الضيوف الذين لم يخل بيت عبد القادر عياش منهما في الأسبوع مرة أو مرتين .

وقد كبرت ابنتاه ، وكان المأمول أن يقر قراره ، وتسكن ثاثرة نفسه ، ولكنه ظل مشدوداً إلى تلك الذكريات ، بحن ، ويئن ، ويتأوه ، وقد شدّ في حزنه عن القاعدة المألوفة القائلة بأن كل شيء يبدو صغيراً لأول وهلة ثم يكبر ، إلا المصيبة فانها نبدو كبيرة أول الأمر ثم تصغر بعد مرور الزمن ، فها هي ذي مصيبة (عياش) بدت كبيرة ، وظلت كبيرة إلى أن استأثرت به رحمة الله .

وأنا أصطاف بسوق الغرب من لبنان تلقيت من الصديق روكس بن زائد العزيزي بعمان خبر نعي عبد القادر عياش الذي توفي في يوم ١٩٧٤/٦/٨ وكان لهذا النعي أبلغ الأثر في نفسي ، وأشد العمق في قلبي ، وقد ودعت ذكراه العزيزة بأغلى دموعي وأسخاها ، فقد بكيته على قدر ما كان له في نفسي من مودة ومحبة ، وان ما كان له في نفسي من المودة والمحبة لشيء كبير ، ولا أحسبني سأنساه يوماً ما دمت حياً .